علاقة التاريخ باللهجات العربية

صورة محاضرة تلاها بالافرنسية الامير شكيب ارسلان

في مؤتمر المستشرقين المنعقد في لندن في اوائل سبتمبر الماضي

—٢—

الامالة وغيرها في سورية

وفي سورية الفاظ لا يأخذها الاحصاء غير خاضعة لقاعدة الامالة لا سيما ما كان على وزن فعالة وفعيلة وفعلة ومفعولة وفعولة وفاعلة وافعلية وجاء قبل آخره احد الحروف الآتية : الراء والعين والغين والقاف والضاد والظاء والخاء والحاء والطاء والهاء فإن العادة في مثل هذه الالفاظ عند السوريين ان يلفظوها بالفتح فيقولون « بشارة » و « عطارة » و « نشارة » و « بصيرة » و « صخرة » و « طفرة » و « فترة » و « مطمورة » و « منظورة » و « مجرورة » و « عثورة » و « صابرة » و « شاطرة » و « حاضرة ». وهلم جرًّا . وقد تشذ عن هذه القاعدة الفاظ بحسب البلدان فيجيء قولهم من باب فعيلة مثلاً « يده قصيره » بكسر الراء و « نفس كثيره » بكسر الراء ايضاً و « كبيره » و « صغيره » بالكسر ايضاً . وتشذ الفاظ من باب فاعلة مثل « يده جابره » وقد سمعت اناساً يقولون « امرأة طاهرة » بفتح الراء وآخرين يلفظونها « طاهره » بكسر الراء . وسمعت « سافرة عن وجهها » بفتح راء سافرة وبكسرها . ولم اسمع فعالة وفعولة ومفعولة مما يسبق آخره راء الا مفتوح الراء . وكذلك في حرف العين يقولون « رفاعة » و « رضاعة » و « جماعة » ولم يرد في هذا الضرب امالة . ثم يقولون « رفيعة » و « بديعة » و « شنيعة » وما اشبه ذلك بلا امالة ايضاً . ويقولون « نبعة » و « ضبعة » و « شنعة » و « رقعة » الخ بدون امالة ايضاً . ويقولون « مرفوعة » و « مصنوعة » و « مرتوعة » و « مسموعة » « واربعة » وما ماثلها كل هذا بفتح ما قبل آخره . ومثل « رافعة » و « صانعة » و « الشمس طالعة » الخ بدون ادنى امالة . وسمعت في حرف العين من يميل « الاربعاء » فيقولها كأنها « الاربعي » ولكن الاكثرين لا يميلونها . وحكم الغين هو حكم العين فيقولون « صباغة » و « صباغة » و « اصبغة » و « بلغة » و « نابغة » و « فارغة » و « تمضوغة » و « تمضوغة » كل ذلك بفتح الغين . ويقولون في حرف القاف « رقاقة » و « علاقة » و « لزقة » و « فرقة »

و«سرقة »و« محروقة »و« مطروقة » و«صاعقة »و« باعقة »و« غيمة مارقة». و« الشمس شارقة » و« حقيقة » و« دقيقة » و« رفيقة »و« منمقة » وهلمَّ جرًّا وكلهُ بالفتح ايضاً . وحرف انضاد تقل الامالة فيما ينتهي به من الصيغ فيقولون بالفتح « قراضة » و« عراسة » و« ريضة » و« نهضة » و« عريضة » و« فريضة » و« مريضة » و« ممرضة » و« ناهضة » و« غامضة » و« بضاعة ممروضة » و« زينة ممخوضة » و« غميضاء » وهلمَّ جرًّا . ومثلها حرف الظاء فمنها « لماظة » و « لحظة » و« لفظة » و« غاظة » و « غليظة » و« ملحوظة » و« ملاحظة » و« حافظة » وما هو في ضربها . ولا يميلون في الصيغ التي قبل آخرها حرف الظاء بل يقولون « صارخة » و« نفاخة » بالتشديد و« شيخة » و« فرخة » و«ملموخة» و« ممسوخة » .وكذلك حرف الخاء يقولون فيه « صباحة » و« سماحة » و« عين نضاحة » و« فضيحة »و«واضحة» و« صفحة »و« نفحة »و« نصوحة »و« اطروحة »و«مشروحة» و« اضرحة » وهلمَّ جرًّا وكله بفتح الخاء . وتجري مجراها الطاء فتسمعهم يقولون «خراطة» و« خريطة » و« منقوطة » و« اغلوطة » و« مغالطة » و« ساقطة » و« لاقطة »و«لقطة» وغير ذلك وكلهُ بالفتح . وحرف الطاء ايضاً قلما يميلون بعده فتسمعهم يقولون « فهاهة » و«باهة »و« نبيهة » و« سفيهة » و «واطة » و« مشافهة » وغيرها . وتجري مجرى هذه الحروف الصاد فتجد الشاميين يقولون « حمصة » و« رقصة » و«وبسة» و«امين شاخصة» و«مخصوصة » و«خريصة » «ومناقصة »الخ اما بعد حرف الباء فيميلون ويقولون «شربه» اي « شربة » « وضربة » اي «ضربه» وبقرة حلابه»و«غالبه »و«مغلوبه» وهلمَّ جرًّا. وكذلك يميلون بعد الجيم فيقولون «ضجيه» و«عجيه» و«معالجيه » و«حجيه» و«اعضاؤه مشنجيه »و«حالته مرجوجيه»وكل هذا بكسر ما قبل الآخر .ويميلون بعد التاء والثاء فيقولون « ثماتيه»و« ثابتيه» و« نابتيه» و«مبتوتيه »و«حتيه»بمعنى قطعة و«وارثيه»و«ثياب رثيه» و «افكار مشوثه » و« حمى خبيثيه» وهلمَّ جرًّا وكله بكسر التاء والثاء قبل الوقف . ومن الحروف التي يمال فيها الدال فانهم يقولون «الحدِّه » بكسر الدال و« الشدِّه » و« المهدِه » و« اقوال العرد ودِه»و« ايام معدودِه»«والفائدِه » و«الجريدِه»و«المعاندِه» و«الانشودِه» وما اشبه ذلك وكله بالكسر . وحرف الدال اقرب الحروف الى الميل الى الكسر ومنهُ قراءة (تلك الله الموقدِه التي تطلع على الافئدِه)في كتاب الله . ثم حرف الذال وهو يجري مجرى الدال في الميل فيقولون في البلاد الشامية « نبذِه » اي « نبذة» و« لذِه » و« شاذِه » و« اكلة لذيذِه » و « تعويذِه » وكل ما جرى هذا المجرى بكسر الذال . ومثل ذلك حرف الزاي فانهم يقولون « حزِه » و« غزِه » و« فائزِه » و « فيروزِه » و« اخت العزيزِه » و« قطعة مفروزِه » و« عسا مركوزِه » و« هذه المسئلة غير محرزِه» اي ليست ذات بال

و« الغريزه » وكل هذه الاوزان اذا جاءت في حرف الزاي تنطق بها الشاميون بالامالة. ومثل ذلك حرف السين فانهُ مما ينطق به الشاميون مع الامالة فيقولون « حسيه » و« ليلة مأنوسيه » و« امتعة مكردسيه » و« وجوه عابسيه » و« امور محسوسيه » و« اسطر مطموسيه » وهلمَّ جرًّا. ومثله حرف الشين فيقولون مثلاً « من نكش هذه النكشه » و« مناظر منعشه » و« حوادث مدهشه » و« آية منقوشيه » و « دار مفروشيه » وما اشبه ذلك . ومما يلفظهُ الشاميون بالامالة حرف الفاء فيقولون « غرَف غرفيه » و« دراهم معروفيه » و« سيدة شريفيه » و« قصة لها سالفيه » و « الغرفيه » و« الحرفه » و« العاطفيه » و« وصف الطبيب له وصفيه » و « كتب معنّفه » وما شاكلها . ومثله حرف الكاف فيقولون « ملكيه » و« تكيه » و« ارض مملوكيه » و « هالكيه » و « طريق سالكه » و« البركيه » اي الحوض و « البركه » اي الزيادة وهي محركة و« حرب مشتكيه » و« معركه » الخ. ومنها حرف اللام وامثلته « مسئليه » و« مائليه » و« عائليه » و « عمولِه » و « معلولِه » و « حصة قليليه » و « مقاصد نبيليه » و « مظنّيه » و « محلّيه » و « الكليه » و « القليه » و « الغاليه » و « الدنيا زائليه » و « ثياب سبلّيه » ومالا يحصى من الالفاظ التي تهوي نزولاً بمجرد ما يتلفظ بها اهالي الشامات . ومنها حرف الميم وشواهده « الامّه » و« العامِه » و« السلامه » و« يوم القيامه » و « خيل ملحميه » و « افتقار مقليه » و « حربة مسمومه » و « قضية معلوميه » و « الناميه » و « الحروف الجازميه » و « يتيميه » و « حليميه » و « العزيميه » و « اسود مثل الفحميه » و « الرحميه » وما اشبه ذلك . ثم حرف النون فيقولون « الجنّه » و « الانه » و « حنّه » ويلفظون الحسناء الممدودة بالامالة ايضاً فيقولون « الحِنّيي » و « المعايِنِه » و « السحنه » و « المصونه » و « الصوانه » و « الخزانه » وهلمَّ جرًّا. ومن هذه الحروف الواو والياء فيقولون فيهما « العلوه » و « النعومه » و « الكنّيه » و « المنّيه » و « المنّيه » بتشديد الياء و « الحلوه » و « لِلوه » و « الخلوه » و « العابيه » و « العنايه » و « المشوية » و « المقلية » ومن العدد « ميّه » و « الالفيه » و « الجاهليّيه » و « الامة العربية » وكل ما جاء بالواو او بالياء قبل الوقف في وزن من هذه الاوزان فهو عند اهل الشامات بالكسر

وكذلك يميلون في المقصور والممدود ولكن بدون اطراد فتجد بادئاً مثل بيروت يقول اهلها للهواء « هوا » بامالة الالف و « نجا » و« جرى » و « سوا » و « ظما » و « ندى » وما اشبه ذلك كأنما هي بين الالف والياء . وبجانبها لبنان يقول اهله جميع هذه الالفاظ المنتهية بالالف المقصورة او الممدودة كما يقولها أهل الحجاز او مصر. ومن السوريين من يقول « انا » بنون ممالة ومنهم من يقول « أني » اي بامالة زائدة. فانت ترى من هذه الامثال ان اللفظ يختلف في سورية من صقع الى صقع وان الامالة ليست عند السوريين عامة للحروف كلها. فلا

عجب ان لا تكون الاندلس قد اماتت في كل لفظ ثم هي قد ضمّت من العرب تخاليط ومن غير العرب تخاليط فليس كل الاندلسيين شاميين

تحريف غريب!

ومن اغرب ما لحظتهُ من الفاظ الاسبانيول العربية النازعة الى عرق قديم في لغة الناطقين بالضاد لفظة « رَبَال » اسم الماء ومعناها ناحية البلد او الربض . وفي كتب اللغة عندهم انها لفظة عربية محرفة اي ان ضادها انقلبت لاماً . وقد كنت اظن ان قلب الضاد لاماً في هذه اللفظة انما جاء من الاسبانيول كما هي عادة كل امة في تحريف ما تنقله عن امة اخرى . لكني لما كنت في الحجاز سنة سنتين وصعدت الى جبال الطائف للنزهة سمعت قبيلة هذيل وطائفة من ثقيف في جبال الشفا ينطقون بالضاد لاماً منغمة فيقولون للضيف « ليف » وللضيق « ليق » وللاخضر « اخلر » وكذلك الظاء يلفظون منها كثيراً كاللام فيقولون « صلاة اللُّهر » اي صلاة الظهر . فتذكرت هذا الامر وعلمت ان الاسبانيول لم يحرفوا الربض من عند انفسهم بل سمعوا ضاده لاماً منذ جاء العرب الى ديارهم

ومن مميزات لهجات العرب شين الكشكشة وقد كانت لغة ربيعة في نجد . ولهذا نجدها في اكثر بادية الشام لان اكثر قبائل الشام مثل الرولا وولد علي والمعجل والسبعة والفدعان هم من عنزة . ولا يخفى ان عنزة هي من ربيعة لان عنزة هي من اسد واسد من ربيعة فقد نقلوا شين الكشكشة معهم من نجد الى الشام

ومثلها سين الكسكسة سمعت اناساً من بني صخر في البلقاء ينطقون بها فيقولون للكعابة « السعابة » وسمعت اناساً من العارض في نجد ينطقون بها ويقولون « يسي » اي يبكي وغير ذلك من الالفاظ التي فيها حرف الكاف والتي يلفظونها بالسين . ومما لا نزاع فيه ان اصل عرب بيروت من اليمانية ولذلك لما كانت المناظرة بين القيسية واليمانية في بر الشام كان اهل بيروت من الفئة اليمنية وحدثت بينهم وبين القيسية معركة في « انغلغول » على باب بيروت . وليس الدليل على كون اهل بيروت يمانيين في الاصل منحصراً في التاريخ بل نجد اصطلاحات يمانية في الناظهم مثل قولهم « امبارح » اي البارح وهي لغة حمير وعليها الحديث الشريف (من امبرصيام في امسفر) اي من ابر صيام في السفر . ويقول اهل بيروت « تاهي » بمعنى طيب كما يقول ذلك اهل اليمن . وكذلك مدينة حمص هي بلدة غلبت عليها اليمانية حتى جاء في الامثال « اذلُّ من قيسيٍّ بحمص » ولما هاجر كثير من الشاميين الى الاندلس كان اكثر نزول الحمصيين باشبيلية فسميت ايضاً بحمص . وغلب على اهل حمص الاندلسية العرق اليماني ايضاً مثل اللخميين والبلويين والجذاميين وبني خلدون وبني حجاج . فحمص الغربية كانت مثل امها حمص الشرقية بلدة يمانية وكتابها

نقلت الفاظ اليمن. ولما فتح العرب الشام أتى اليمانيون الى حمص بصناعتهم النسيج وبامتعتها فهم الى الآن يقولون للثوب « برد » كما يقولونهُ في اليمن

ومن هذا القبيل استعمال الدروز للفظة « عقلاء » بمعنى الوجوه والرؤساء فهذا الاصطلاح آت من اليمن ولا يزال في اليمن . ومثله « منصب » يقولون « بنو فلان مناصب » او « عائلة مناصب » فهذا من اصطلاح اليمن وحضرموت ومن اصطلاح الدروز وشيعة جبل عاملة . وهاتان الطائفتان متوالية جبل عاملة ودروز جبل لبنان جيرانهم اصلها من عرب اليمن الدروز من لخم وجذام والشيعة من عاملة وكانتا من قبل فرقة واحدة كلها شيعة لآل البيت ثم اخذ بعضهم بمذهب الشيعة الاثنا عشرية والبعض الآخر بمذهب الشيعة السبعية الذين منهم الاسماعيلية فالدروز . ولا تزال بطون كثيرة منها حافظة اسماءها قبل الانشقاق واصحابها يعرفون انهم من ارومة واحدة

لفظ القاف في مصر

هذا ومن المناسبات الواقعة بين التاريخ واللهجات كيفية لفظ القاف فإن القاف المقلقلة كانت في القديم لفظ قريش واهل مكة ام القرى كما ان القاف المعقودة اي التي بين القاف والكاف كانت لفظ البادية . وانك لتجد الحالة بعينها الى يوم الناس هذا . فاهل الحواضر والعلماء والادباء والمترفون يلفظون القاف النحوية . واهل القرى والصحاري سواء في الشام أو مصر أو جزيرة العرب أو العراق أو شمالي افريقية يلفظون القاف المعقودة

وانظر الآن الى ما قالهُ كبير أدبائنا وقتهِ حفني ناصف رحمهُ الله في موضوع الاستدلال التاريخي من اختلاف اللهجات فقد قرى في هذا البحث قرياً لم يسبقهُ اليهِ احد فيما اعلم وبلغ من الاجادة ما ليس وراءه متطلع لغاية فكراً وتعبيراً فقال « واول ما اقتدح في ضميري هذا الخاطر رأيت في احد الاندية قوماً يتحاورون بعضهم من مديرية المنيا وبعضهم من مديرية بني سويف فسمعت كلامهم فاذا هم على تقارب ديارهم وتجاور مواطنهم متباعدون في اللهجة متباينون في طريقة الكلام أيَّ تباين .فقلت ياسبحان الله كيف يكون هذا التباين والاختلاط موجود والتقارب حاصل . فلابد ان يكون لذلك سر خفي وسبب واقعي انبنى عليهِ هذا التخالف العجيب رغماً من مصادمة الاختلاط والتجاور . ثم قلت : لا شك ان هذا الجيل القائم لم يأت بدعاً في اللغة ولم ينطق بشيء غير ما سمعهُ من الجيل الذي قبلهُ كما هو مشاهد في تساوي لهجة الشيوخ والصبيان فبالضرورة هذا الجيل ورث طريقة الكلام عن سلفه . ثم نقلت النظر الى الجيل السابق المتصل بالجيل القائم وبحثت عن سبب اختلافهِ أيضاً فتبين لي بقياس الغائب على المشاهد ان سببهُ ارث اللغة عن الجيل الذي قبلهُ أيضاً ولم ازل انقل النظر

من جيل الى جيل راجعاً الى جهة الماضي حتى انتهيت الى قبيل التي دخلت في العربية ارض مصر وذلك في ايام ما فتحها المسلمون في خلافة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنهُ . فقلت ههنا تنحل المسألة ويظهر السر الخفي ويتجلى للعيان السبب في اختلاف طريقة الكلام في الاحياء المتنالية من ذلك العهد الى الوقت الحاضر. فاخذت مادة من مواد الاختلاف والقيتها تحت مسفار البحث ووضعتها موضع التأمل حتى اذا ظهر خافيها تكون نموذجاً لباقي المواد . وتلك المادة هي طريقة النطق بالقاف. فبعض اهل بني سويف ينطقون بها قافاً صريحة كالقاف التي ينطق بها القرّاء والعلماء . واهل المنيا ينطقون بها مشوبة بالكاف كما ينطق بالجيم عوام اهل القاهرة. ثم عرضت هذا الاختلاف في تلك المادة على المنقول عن قبائل العرب فوجدتهُ موافقاً حذو النعل بالنعل للاختلاف بين قريش وغيرهم حيث كانت قريش تنطق بها قافاً خالصة وغيرها يشوبها بالكاف. فوقفتني تلك المقارنة على ان العرب الذين استوطنوا ارض بني سويف مدة الفتح وبعده كانوا قرشيين والذين استوطنوا ارض المنيا كانوا من غير قريش . وعلى هذا فيمكن ان ننسب الى قريش اما بالنسب او بالولاء او بالمخالطة كل من ينطق من اهل مصر بالقاف الصريحة كسكان مديرية الفيوم وبعض مديرية الجيزة واهل ابيار ورشيد وضواحيها والمحلة الكبرى والبرلس وبلبيس من الشرقية والخصوص من القليوبية وان نحكم على كل من يتكلم بالقاف المشوبة بأنهُ ليس من قريش كاهل السعيد ومديريتي الشرقية والبحيرة الا قليلا وبعض مديرية المنوفية وجميع سكان بوادي مصر

«واكد لي صحة ذلك الحكم ما كان ولا يزال كائناً من عموم الخصب والنماء على جميع الاراضي التي يسكنها المتكلمون بالقاف الصريحة دون الاراضي التي يسكنها المتكلمون بالقاف المشوبة فان منها ما هو صحار قحلاء لا ترى العين فيها الا الرمل والحصى ومنها ما هو سهول سبخة لا تصلح الا لزراعة بعض الاصناف ويتوقف استنباتها على مشاق زائدة وتكاليف باهظة ومنها ما لا يزرع في العام الاّ مرة واحدة . وانت تعلم انهُ مركوز في طباع الامم الفاتحة حب الاستئثار بالمنافع والميل الى الاختصاص باحسن ما يمكن وضع اليد عليهِ من الارض التي يفتحونها سنة الله التي فطر الناس عليها . وقريش ايام فتوح مصر كانت اشرف العرب نسباً واوفرها قوة واعزّها نفراً وكان لها في الدولة الاسلامية النفوذ الاقوى والسطوة العليا لقرابتها من صاحب الدين عليهِ الصلاة والسلام فلا جرم ان سكنت احسن البقاع وامتازت بأحسن الاصقاع »

الى ان يقول رحمهُ الله :

« وههنا وقفت على الضالة المنشودة وتيقنت امكان فتح الكنوز المرصودة بان تطبق جميع مواد الاختلاف الشائعة في اللغات العامية على ما يماثلها من لغات العرب الصحيحة

وينسب كل من يتكلم بطريقة الى اصحابها . وحينئذ يمكن انتساب الانساب المجهولة في مصر والشام والمغرب والسودان والعراق وسائر الممالك التي افتتحتها العرب ان يعلموا الى من ينتسبون ومن يرتبطون سواء في ذلك ارتباط النسب وارتباط الولاء والمحالفة . ويمكن ايضاً القبائل المتفرقة في اقطار مختلفة اذا كانت طريقة كلامهم متحدة ان يعلموا ان لهم اصلاً واحداً يجمعهم ويؤول اليه انتماؤهم »

ثم يقول برّد الله ثراه

« ولعمرك ليس هذا بقليل عند من يقدر الامور حق قدرها ويعنيه استخراج الدقائق التاريخية بل هو امر يتنافس فيه المتنافسون . وما الاستدلال بهذه الطريقة كالكلام باذى خطورة ولا اقل اعتباراً من الاستدلال بالاحجار الصامتة والدفائن العتيقة واني لاعجب كيف لم يتناول هذا الموضوع جهابذة العلماء ومشاهير المتقدمين مع ما لهم من سعة الاطلاع ورسوخ القدم وكيف لم يهتم المتأخرون باذاعة ما كتب والحذو عليه ان كان قد كتب شيء في هذا المعنى »

ويقول في محل آخر :

« ويتفرع على ما تقدم امكان معرفة انتساب اقوام متفرقين في جهات عديدة الى قبيلة واحدة . فاذا اشترك قوم في الشام وقوم في المغرب في جملة خواص لقبيلة واحدة بحيث تكفي تلك الخواص للتمييز حكم بانهم من اصل واحد ولسبب من الاسباب الكونية قضى الزمان بتفرقهم وتشتتهم في النواحي وهنا تتنبه الخواطر للسؤال عن علة تلك الحادثة وتستشعر بنقص التاريخ من هذه الجهة فتتشوف الى تكميله بالبحث عن اسباب هذا التبدد ولا بد ان تعثر ولو بعد حين على مطلبها » انتهى

جمع حفني ناصف كل هذا العلم الجليل في هذه الاسطر التي تقدمت . وحق له ان يعجب من تأخر العلماء والجهابذة عن اعطاء هذه للباحث حقها من الجهد خدمةً للتاريخ على حين انهم انفقوا الاعمار الطويلة والاموال الطائلة في التنقيب في الاحجار وتحت الارضين لاجل هذه الخدمة . فأما تفرق القبائل العربية في الاقطار المتنائية فاكثره وقع بسبب الفتح الاسلامي الذي كانت هذه القبائل هي القائمة به الى ان خلا كثير من اصقاع الجزيرة من اهله . ثم وقع منهُ شيء كثير بسبب حروب القبائل بعضها مع بعض وذلك نظير حروب بني عقيل وبني تغلب في البحرين مع بني سليم بن منصور مما ادى الى خروج هؤلاء الى مصر ثم الى برقة ايام المعز بن باديس

[التتمة في الجزء القادم]